الحمد لله الواحد الشاهد المحي الماجد يقتبس عنه جميع
العبيد ووفائهم لشفيعهم

المنهج التربوي في كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم[1]

الدكتور حازم الحاج طه

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

مقدمة (١)

قبل أن أتحدث عن هذا الكتاب أبادر فأقول : إن الذي حدا بي إلى الكتابة عن هذا الموضوع هو مقام هذه المبادرة إلى محو الأمية التي ستنقذ نفوساً كثيرة من مخالب الجهل ، ويتفيأ عليها ظلال العلم . ولامراء في أن للعلم سلطانه القاهر ، والمتسلح به متسلح بسلاح الظفر . وللجهل عثراته الموبقة ، والمتسلح به متسلح بسلاح مفلول.

والأمم التي تحل معضلاتها مستضيئة بنور العلم تفلح فيما تحاول ، وتتغلب على الصعـــاب والعقـــاب التي تعترضها . أما الأمم التي لاتستهدي العلم ، ولاتستنيره في حل معضلاتها فيصعب على قادتها متى أرادوا توجيهها نحو الحياة الصالحة أن يجدوها لينة القياد ، خفيفة الخطا. فقرار محو الأمية إذاً بادرة مشكورة ، ومبرّة غير منكورة . وإننا لنود من صميم قلوبنا أن تكون نهضتنا العلمية راسخة البناء ، رائعة الطلاء ، محمودة العاقبة .

التربية والتعليم

يجمل بنا قبل البحث في صميم الموضـــوع ، أن نقدم له بكلمة عـــامة في التربية والعلم :

التربية والتعليم ليستا كلمتين مترادفتين تدل احداهما على ماتدل عليها الأخرى ، بل هما مختلفتان كل الاختلاف من بعض الوجوه ، ومرتبطتان أشد الارتباط من وجوه أخرى .

فالتعليم : داخل في التربية ، أو هو وسيلة من وسائلها .

والتربية : هي ايقاظ قوى المرء ، واستعداداته المختلفة الكامنة في نفسه ، وترقيتها تدريجياً حتى تبلغ أقصى مايمكن أن تصل اليه من الكمال . وهذه لاترقى رقياً صحيحاً إلا بالجهود المتصلة ، والمناهج المدروسة ، والاشراف الدقيق.

(١) مؤلفة : هو ابو عبدالله محمد بن ابراهيم بن سعدالله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر (ولد بحماة سنة ٦٣٩ هـ . وتوفي سنة ٧٣٣ هـ . وقد نشر ضمن رسائل اخرى في التربية الاسلامية بعنوان (آداب المتعلمين) وهناك طبعة ثانية في الهند واخذت بالأوفست في دار الكتب العلمية في بيروت .

فالتربية تحوط المرء بالمؤثرات التي تستثير قواه ،وتستدعي منها ذلك العمل والجهود المتلاحقة .

ولما كان العقل لاينمو ولايزكو إلا بالتفكير السليم ،كما أن الاخلاق الفاضلة لاتكتسب بالتلقين وحده ، بل بمزاولتها والمرانة عليها . فالتربية كذلك. لاتكون مثمرة إلا بعمل المتعلم نفسه ، وبجهوده هو .

أما التعليم فهو ايصال المعلومات المتنوعة ،والخبرات المختلفة إلى الاذهان، بطريقة تستثير فيهم التفكير فيما يحصلون من العلم. وبذلك ينمو ، ويزكو ويسمو ، وتسع مادته وتزداد .

وما التعليم الصحيح إلا المثير في نفس المتعلم الشغف والرغبة في الاستزادة من العلم ، والاقبال كل الاقبال عليه .وفي الوقت ذاته يحثه على التفكير فيما يزوده به العلم والمعرفة النافعة له في خضم حياته ،فينمو العقل ، ويزكو (١) . فالتعليم الصحيح إذاً وسيلة من وسائل التربية العقلية .

بعد هذا التمهيد الذي لم يكن بدٌّ من تقدمته بين يدي البحث نقول : لقد تضافرت جهود أولى العلم والمعرفة في هذه الأمة العربية العظيمة على نشر العلم ، ورفع شأنه ، واعلاء مقامه في أنحاء شتى متقاربة ومتباعدة . وهل أدل على هذا من الكتب المستفيضة التي خلفوها ، والنفائس العلمية والادبية التي تموج بها دور الكتب .

كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم

مرامي الكتاب

لقد افتتح مؤلفه بمقدمة أشار فيها إلى ما حدا به إلى تأليف الكتاب فيقول: أما بعـــد — فإن أهم مايبادر به اللبيب شرخ شبابه ،ويدئب نفسه في تحصيله واكتسابه ،حسن الأدب الذي شهد الشرع والعقل بفضله ،واتفقت الآراء والألسنة على شكر أهله ،وان أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة واولاهم بحيازة

(١) انظر اصول التربية وفن التدريس ص ١٠.

هذه المرتبة الجليلة أهل العلم الذين حلوا به ذروة المجد والسناء ، واحرزوا قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء لعلمهم بمكارم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم — وآدابه . وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه وبما كان عليه أئمة علماء السلف واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف .

قال ابن سيرين : كانوا يتعلمون الهدى (١) كما يتعلمون العلم .

وقال الحسن : إنه كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثم السنتين .

وقال سفيان بن عيينة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم — هو الميزان الأكبر ، وعليه تعرض الأشياء على خلقه وسيرته وهديه ، فما وافقها فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل .

وقال حبيب بن الشهيد ؛ لأبنه : يابني اصحب الفقهاء والعلماء ،وتعلم منهم ، وخذ من أدبهم ،فإن ذلك أحب إليّ من كثير من الحديث .

وقيل للشافعي رضي الله عنه: كيف شهوتك للأدب ،فقال : اسمع بالحرف ، منه ممـــا لم أسمعه ، فتود أعضائي أن لها أسماعاً فتنعم به . قيل : وكيف طلبك له ؟ قال : طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره .

ولما بلغت رتبة الأدب هذه المزية ،وكانت مدارك مفضلاته خفية ، دعاني مارأيت من احتياج الطلبة اليه ،وعسر تكرار توقفهم عليه ،إما لحياء فيمنعهم الحضور أو لجفاء فيورثهم النفور ،إلى جمع هذا المختصر مذكراً للعالم ماجعل اليه،ومنبهاً للطالب على مايتعين عليه ،ومايشتركان فيه من الأدب وماينبغي سلوكه في مصاحبة الكتب .وجمعت ذلك مما اتفق في المسموعات ، أوسمعته من المشايخ السادات ، أو مررت به في المطالعات ، أو استعدته في المذكرات وذكرته محذوف الأسانيد والأدلة ،كيلا يطول على مطالعه أو يمله .

وقد جمعت فيه بحمد الله تعالى من تفاريق هذه الابواب مالم أره مجموعاً في كتاب ، وقدمت على ذلك باباً مختصراً في فضل العلم والعلماء على وجه التبرك والاقتداء .

---

(١) الهدي : السيرة والهيئة والطريقة .

وقد رتبته على خمسة أبواب تحيط بمقصود الكتاب .

الباب الأول : في فضل العلم وأهله ،وشرف العالم ونسله .

الباب الثاني : في آداب العالم في نفسه ومع طلبته ودرسه

الباب الثالث : في أدب المتعلم في نفسه ومع شيخه ورفقته ودرسه

الباب الرابع : في مصاحبة الكتب وما يتعلق بها من الأدب

البب الخامس : في آداب سكنى المدارس ومايتعلق به من النفائس

وقد سميته « تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم »(١)

يضيق بنا المقام عن استقصاء جميع أبواب الكتاب في هذا البحث .فبحسبنا أن نكتفي بما يدلنا على معالم الكتاب .

فضل العلم والعلماء ،وفضل تعليمه وتعلمه » . (٢)

بسط الحديث عن فضل العلم ، وسمو منزلة العلماء يستدعي مقاماً أوسع من هذا المقام ،فحسبنا أن نقول : إن أول نداء إلهي يفتتح به الله باسم الربوبية وحيه إلى نبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — تلكم الآية الكريمة (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ،اقرأ وربك الأكرم ،الذي علّم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم) (٣) .إنها أول صرخة تسمو بقدر القلم ،وتشيد بفضل العلم ،وتشهر السلاح على سماجة الأمية ،وتجعل اللبنة الأولى في بناء المجتمع أن يتعلم ، وأن يقرأ ،كي يسود العلم في ذلك المجتمع ،فحينئذ يتوارى الجهل ،وتذبل أغصانه ،كما تبلى الشجرة الباسقة في أرض ذهب خصبها وجف ماؤها .

وها أنا ذا أسوق جملة من تلكم الآيات والأحاديث النبوية التي أوردها المؤلف .

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم : ١٦٩ .

(٢) المصدر نفسه : ١٦٩

(٣) سورة العلق : آية ١، ٢، ٣، ٤، ٥

قال الله تعالى (يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات)(١) وقال تعالى(شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط)(٢) بدأ سبحانه بنفسه ،وثنى بملائكته ، وثلث بأهل العلم — وكفاهم بذلك شرفاً وفضلاً وجلالة ونبلاً (١) .

وقال تعالى :(هل يستوي الذين يعلمو ن والذين لايعلمون) (٢)

وقال تعالى :(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون)(٣)

وقال تعالى « ومايعقلها الاالعالمون » (٤)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« العلماء ورثة الأنبياء» .وحسبك هذه الدرجة مجداً وفخراً ،وبهذه الرتبة شرفاً وذكراً، فكمالارتبة فوق رتبة النبوة، فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة (٥) .وروي عنه صلى الله عليه وسلم « من أكرم عالماً فكأنما أكرم سبعين نبياً ، ومن أكرم معلماً فكأنما أكرم سبعين شهيداً » .

وقال علي رضي الله عنه : كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح به إذا نسب اليه ،وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه .

وقال وهب (٨) يتشعب مع العلم الشرف وإن كان صاحبه دنياً ، والعز وإن كان مهيناً ،والقرب وإن كان قاصياً ،والغنى وإن كان فقيراً ، والمهابة وإن كان وضيعاً . وعن معاذ رضي الله عنه :تعاموا العلم فإن تعلمه حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وبذله قربة ، وتعليمه

---

(١) سورة المجادلة . آية ١١
(٢) سورة آل عمران . آية ١٨
(٣) هذا من كلام المؤلف نفسه
(٤) سورة الزمر آية ٩
(٥) سورة الأنبياء آية ٧
(٦) سورة العنكبوت . آية ٤٣
(٧) هذا من كلام المؤلف نفسه .
(٨) هو وهب بن منبه الحافظ عالم اهل اليمن وكان قصة توفي سنة ١١٤ (هامش تذكرة السامع)

من لايعلمه صدقه . وقال سفيان الثوري والشافعي رضي الله عنهما : ليس بعد الفرض أفضل من طلب العلم .وعن أبي ذر وهريرة رضي الله عنهما ، قالا : باب من العلم نتعلمه أحب الينا من مائة ركعة تطوعاً ، وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل أحب الينا من مائة ركعة تطوعاً .

وقد ظهر بما ذكرناه أن الاشتغال بالعلم لله أفضل من نوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام وتسبيح ودعاء ونحو ذلك :لأن نفع العلم يعم صاحبه والناس ،والنوافل البدنية مقصورة على صاحبها ،ولأن العلم مصحح لغيره من العبادات فهي تفتقر اليه ،وتتوقف عليه ولايتوقف هو عليها ، ولأن العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم وليس ذلك للمتعبدين ،ولأن طاعة العالم واجبة على غيره فيه ،ولأن العلم يبقى أثره بعد موت صاحبه ،وغيره من النوافل تنقطع بموت صاحبها ....والخ (١) .

إننا لقمين بنا أن نقف موقف إجلال وإكبار تجاه هذه الحض على تعلم العلم ، ومحاربة الجهل وتتبعه في كل وكر من أوكاره ، وفي كل لون من ألوانه ، .. ولا بد هنا من وقفة يسيرة لنقول : إن المخلوق الجاهل لااعتداد بوجوده في هذه الحياة (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) (٢) . والعلم في نظر القرآن ليس خاصاً بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام ، وإنما العلم في نظره هو كل إدراك يفيد الإنسان توفيقاً في القيام بمهمته العظمى التي ألقيت على كاهله منذ قدر خلقه وجعل خليفة في الأرض ، وهي عمارتها واستخراج كنوزها ، وإظهار أسرار الله فيها (٣) فادراك مايصلح به النبات وينمو ويثمر ، وما تستنبت به الأرض وتحيا علم . وإدراك موارد الصناعة على اختلاف أنواعها وكيفياتها وتوزيعها علم . وإدراك الامراض وعليها وكيفية علاجها وطرق الوقاية منها ، علم . وإدراك ماتعرفه الأمم من وسائل الدفاع والهجوم ، حفظاً للأوطان ، ودفعاً للعدوان بما يرهبهم ، علم .

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في ادب العالم والمتعلم : ١٧٣ .

(٢) سورة الزمر آية ٩

(٣) منهج القرآن في بناء المجتمع٦٣

وقد جاء الايحاء بهذا كله واضحاً جلياً في القرآن الكريم ، وبه كان العلم — بمعناه العام الشامل— العنصر الأول من عناصر الحياة . ولو ولينا وجوهنا شطر بطون التاريخ والمكتبات العربية والاسلامية لألفينا شتى الفنون وجميع فروع العلم والمعرفة مايشهد لعلمائنا الأولين بالتركز العلمي .

ويشهد بكل جيل بمنهجه في علمه ومعارفه التي وصل اليها بجهوده وتنكره دون الوقوف عندما ترك السابقون ، بل نظروا وبحثوا واختاروا واختبروا وابتكروا ، وبذلك اقتعدوا مكانة الاستاذية العامة المطلقة . هذه مكانة العلم في بناء المجتمع .

وإذا طوينا الحديث عن فضل العلم والعلماء نقفي بباب أدب العالم في نفسه ومراعاة طالبه ودرسه .

أدب العالم في نفسه (١) .

التعليم فن . وكل فن يكتسب بالمران والدربة والمزاولة ، ولعمل المعلم وشخصيته أثر جليل في حياة طلابه ،وهم رجال الغد ، فهو الذي يقوم بالاشراف الدقيق على تربيتهم ، وتقويمهم وتوجيههم نحو الأغراض السامية، والمثل العليا التي يسعى اليها المجتمع ، ويطمع في الحصول عليها ليشاد صرحه المثالي، الذي يعرف حقه وواجبه في الحياة ، وبقدر مايبذل في تربيتهم ،بقدر مايجعلهم يقتحمون لجج الحياة بكياسة وحنكة ودراية وبصيرة نيرة تبصر مواقع الشر والخير ، فتسعى لأن يكون الشر بعيداً منها ، والخير طوع أيديها ..

ومن هنا كانت المهمة الملقاة على كاهل المربي شاقة خطيرة . ينبغي أن يكون ذا نفس زكية ، وساحة نقية، يتحلى بكل فضيلة ترفع قدره ،وتحفظ كرامته وتصون شرفه وعلمه ، ويسمو عن كل رذيلة تبخس قدره التربوي والعلمي والخلقي .

يقص علينا التاريخ وصية عتبة بن أبي سفيان لمؤدب ولده.قال : (ليكن أول

---

(١) المصدر نفسه : ١٧٥

ماتبدأ به من صلاح ابني إصلاح نفسك ، فان أعينهم معقودة بعينك فالحسن عندهم مااستحسنت ،والقبيح عندهم مااستقبحت ..(١))وهذه الوصية تدلنا على هذه العقلية العربية الإسلامية الحصينة ،وعلى مقدار فهمه لمعنى التربية الصحيحة وفيها توجيه قيم للمربين . فعتبة آثر القدرة في نفوس الناشئين فقال لمعلم ولده: ابدأ باصلاح نفسك أولاً .

والمؤلف يضع بين يدي العالم المربي معالم وصوى ترشده إلى المهيع الذي يجعله قميناً بما يتحلى به من حلية المربي الناجح ، منها :

١ — صيانة العلم .

ينبغي له أن يصون العلم كما صانه علماء السلف ،ويقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف ،فلا يذله بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة أو حاجة ، أو إلى من يتعلمه منهم ، وإن عظم شأنه ، وكبر قدره . وقد أحسن القائل أبو شجاع الجرجاني .

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفس لعظما

فان دعت حاجة إلى ذلك أو ضرورة ،أو اقتضته مصلحة دينية راجحة على مفسدة بدله ، وحسنت فيه نية صالحة ، فلا بأس به أن شاء الله ، وعلى هذا يحمل ماجاء عن بعض أئمة السلف — من المشي إلى الملوك وولاة الأمور — كالزهري والشافعي وغيرهما — لاعلى أنهم قصدوا بذلك فضول الأغراض الدينوية ، وكذلك اذا كان المأتي اليه من العلم والزهد في المنزلة العلية والمحل الرفيع ، فلا بأس بالتردد إليه لإفادته ، فقد كان ، سفيان الثوري يمشي إلى إبراهيم بن أدهم ويفيده ، وكان ابو عبيد يمشي إلى علي بن المديني يسمعه غريب الحديث (٢) .

---

(١) ١٧٥/١ البيان والتبيين

(٢) المصدر نفسه : ١٧٥ .

٢ – تنزيه العلم عن المطامع

أن ينزه علمه عن جعله سلماً يتوصل به إلى الأغراض الدينوية ، من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة أو تقدم على أقرانه ،قال الامام الشافعي رضي الله عنه : « وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لاينسب إلى حرف منه» ، وكذلك ينزهه عن الطمع في رفق من طلبته بمال أو خدمة أو غيرهما بسبب اشتغالهم عليه وترددهم إليه – كان منصور لايستعين بأحد يختلف إليه في حاجة . (١)

٣ – التحلي بمكارم الأخلاق

معاملة الناس بمكارم الأخلاق . من طلاقة الوجه ، وإفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، وكظيم الغيظ ، وكف الأذى عن الناس واحتماله منهم والإيثار وترك الاستئثار ، والإنصاف وترك الاستنصاف وشكر التفضل ، وإيجاد الراحة ، والسعي في قضاء الحاجات وبذل الجاه في الشفاعات والتلطف بالفقراء والتحبب إلى الجيران والأقرباء ، والرفق بالطلبة ، وإعانتهم وبرهم . (٢)

٤ – تطهير باطنه وظاهره من الأخلاق المعيبة

أن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة ، ويعمره بالأخلاق المرضية . فمن الأخلاق الرديئة : الغل والحسد والبغي والغضب لغير الله تعالى ، والغش والكبر والرئاء والعجب ، والسمعة والبخل والخبث والبطر والطمع والفخر والخيلاء ، والتنافس في الدنيا والمباهاة بها ، والمداهنة والتريد للناس وحب المدح بما لم يفعل ، والعمي عن عيوب الناس والاشتغال عنها بعيوب الخلق ، والحمية والعصبية لغير الله ، والرغبة والرهبة لغير الله ، والغيبة والنميمة والبهتان والكذب والفحش في القول ، واحتقار الناس ولو كانوا دونه ، فالحذر الحذر من هذه الصفات الخبيثة ، والأخلاق الرديئة فانها باب كل شر

---

(١) المصدرنفسه : ١٧٧

(٢) المصدر نفسه : ١٨٠

بل هي الشر كله، وقد بلي بعض أصحاب النفوس الخبيثة من فقهاء الزمان بكثير من هذه الصفات — إلا من عصم الله تعالى — ولا سيما الحسد والعجب والرثاء واحتقار الناس ..... والخ . (١)

٥ — المواظبة على التحصيل

دوام الحرص على الازدياد ، بملازمة الجد والاجتهاد ، والمواظبة على وظائف الأوراد من العبادة والاشتغال ، الإشغال قراءة وإقراء ومطالعة وفكراً وتعليقاً وحفظاً وتصنيفاً وبحثاً ، ولا يضيع شيئاً من أوقات عمره في غير ماهو بصدده من العلم والعمل إلا بقدر الضرورة من أكل أو شرب أو نوم أو استراحة لملل ، أو أداء حق زوجة أو زائر ، أو تحصيل قوت وغيره مما يحتاج إليه ، أو لألم أو غيره مما يتعذر معه الاشتغال ، فان بقية عمر المؤمن لاقيمة له ، ومن استوى يوماه فهو مغبون ، وكان بعضهم لايترك الاشتغال لعروض مرض خفيف أو ألم لطيف ، بل كان يستشفي بالعلم ويشتغل بقدر الإمكان كما قيل

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر إخلالاً فننتكس

وذلك لأن درجة العلم وراثة الأنبياء ، ولا تنال المعالي إلا بشق الأنفس ، وفي صحيح مسلم عن يحيى (٢) بن أبي كثير قال : لايستطاع العلم براحة الجسم ، وفي الحديث : حفت الجنة بالمكاره .

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وكما قيل :

لاتحسب المجد تمراً أنت آكله لاتبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقال الشافعي رضي الله عنه : حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في

---

(٢) المصدر نفسه : ٨٠

(١) يحيى بن كثير . (هامش تذكرة السابع) ١٨٢

الاستكثار من علمه ،والصبر على كل عارض دون طلبه ، واخلاص النية لله تعالى في إدراك علمه نصاً واستنباطاً ،والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه وقال الربيع :لم أر الشافعي رضي الله عنه آكلاً بنهار ولا نائماً بليل لاشتغاله بالتصنيف .

ومع ذلك فلا يحمل نفسه من فوق طاقتها كيلا تسأم وتمل ،فربما نفرت نفرة لايمكنه تداركها ،بل يكون أمره في ذلك قصداً ،وكل انسان أبصر بنفسه(١)

٦ ـ استفادة مالايعلمه ممن هو دونه

انه لايستنكف أن يستفيد مالايعلمه ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سناً، بل يكون حريصاً على الفائدة حيث كانت ،والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها .

قال سعيد بن جبير . لايزال الرجل عالماً ماتعلم ؛ فاذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل مايكون. وأنشد بعض الأعراب وليس العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل(٢)

الاشتغال بالتأليف إذا كان أهلاً

الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف لكن مع تمام الفضيلة ، وكمال الأهلية فأنه يطلع من حقائق الفنون،ودقائق العلوم للاحتياج الى كثيرة التفتش والمطالعة والتنقيب والمراجعة،وهو كما قال الخطيب البغدادي : يثبت الحفظ ويذكي القلب ، ويشحذ الطبع ، ويجيد البيان ، ويكسب جميل الذكر وجزيل الأجر ، ويخلده إلى آخر الدهر ، والأولى : ان يعتني بما يعم نفعه وتكثر الحاجة اليه . وليكن اعتناؤه بمالم يسبق إلى تصنيفه متحرياً إيضاح العبارة في تأليفه ، معرضاً عن التطويل الممل والإيجاز المخل مع إعطاء كل مصنف مايليق به ولايخرج تصنيفه من يده قبل تهذيبه ..... الخ (٣).

---

١ ـ تذكرة السامع والمتكلم في ادب العالم والمتكلم ١٨٣

٢ ـ المصدر نفسه : ١٨٣

٣ ـ المصدر نفسه : ١٨٥

أدبه مع طلبته :

بعد أن أجلنا الجولة التي عرفنا فيها جملة من الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها كل من يتبوأ مقعد تربية النشيء وقد رأينا المؤلف لم يدع مكرمة الا نبه على مكانها ، وندب على التجمل بها . ولم يدع رذيلة الا حذر منها . ومتى رغبت نفس مربي النشيء في كل فضيلة ، وتعففت عن كل رذيلة فلا يوجد من ينكر سمو تربيتها ودماثة أخلاقها فهي سوية قوية ، حية نامية يقظة واعية ، مسفرة مشرقة ، يغمر ضؤوها جوانب نفسه ، ويسري ماؤها في أغوار قلبه ، وهي لضميره منارة الذي يهديه سواء السبيل ، ولارادته قوتها النازعة الوازعة عن امرها يصدر صاحبها في حركاته وسكناته ، ونمو أهدافه يتوجه في أقواله واعماله ، ... فاذا أصبح ذلك دأبه وديدنه جلت عين طلابه تخصصية ، وترفرفت قلوبهم من حوله بمحبته وإجلاله ، يأخذون عنه العلم ، ويتأثرون فيه في حياتهم ، ويستفتونه في جل أمورهم ، ويحبون العلم من أجله ، ويحبونه من أجل العلم . فهو اذاً مربّ اولا ، ومعلم ثانياً. وهكذا ينساق بنا البحث إلى الشطر الثاني من آداب المعلم مع طلبته التي أفاض بها المؤلف . وأول مايطالعنا قوله :

تحبيب العلم الى الطالب :

أن يرغبه في العلم وطلبه في أكثر الأوقات بذكر ماأعد الله تعالى للعلماء من منازل الكرامات وأنهم ورثة الأنبياء وعلى منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء ، أو نحو ذلك مما ورد في فضل العلم والعلماء من الآيات والأثار والأخبار والأشعار ويرغبه في ذلك بتدريج على تحصيله من الاقتصار على الميسور وقدر الكفاية من الدنيا ، والقناعة بذلك عن شغل القلب بالتعلق بها ، وغلبة الفكر وتفريق الهم بسببها فان انصراف القلب عن تعلق الاطماع الدنيا والإكثار ، والتأسف على فائتها أجمع لقلبه ، وأروح لبدنه ، واشرف لنفسه وأكمل لحاله ، وأقل لحساده ، وأجدر لحفظ العلم وازدياده ، ولذلك قل

من نال من العلم نصيباً وافراً الا لكان في مبادىء تحصيله على ماذكرت.(١) هذه لفتة رائعـــة ، ونظرة صائبة ، فمن أولى واجبات المربي أن يحبب العلم إلى طلابه ، وان يحرصوا عليه اشد الحرص ، ويصرفوا همتهم اليه، ويعرضوا الاعراض كله عما يشغلهم عنه .

٢ـ حب العالم طلابه ورعاية مصالحهم .

أن يحب لطلابه مايحبه لنفسه كما جاءفي الحديث (٢)ويكره له مايكره لنفسه . وينبغي ان يعتني بمصالح الطالب ،ويعامله بما يعامل به أعز أولاده من الحنو والشفقة عليه ، والأحسان اليه ، والصبر على جفاء ربما وقع منه ، أو نقص لايكاد يخلو الانسان عنه ، وسوء أدب في بعض الأحيان، ويبسط عذره بحسب الإمكان، ويوقفه مع ذلك على ماصدر منه بنصح وتلطف، لابتعنيف وتعسف ، قاصداً بذلك حسن تربيته وتحسين خلقه واصلاح شأنه ، فان عرف ذلك لذكائه بالإشارة فلا حاجة إلى صدع العبارة ، وان لم يفهم ذلك الابصريحها أتى بها وراعى التدرج في التلطف ويؤدبه بالآداب السنية ، ويحرضه على الأخلاق المرضية ، ويوصيه بالأمور العرضية على الأوضاع الشرعية . (٣)

لا أغلو ان قلت ان اجل خصلة يجب ان تتوفر في المدرس الناجح أن يكون محباً اشد الحب وابلغه لطلابه.يحنو عليهم حنوّ المرضعات على الفطيم. يعاشرهم ويخالطهم ،ويمازج حياتهم ،ويطمح في أن يولي وجوههم شطر النهايات من معالي الأمور . واذا انحرف بعضهم عن الطريق السوي ولو قيد انمله فيؤد به باللمحة.حتى يكوّنهم تكويناً صالحاً سامياً يرتقى بهم ذروة المجد العلمي، وقمة الشرف الخلقي . فبذلك يستطيع ان يجتذب محبتهم وطاعتهم . وهذه الخلال الفضلى وامثالها هي التربية القويمة ، والتوجيه السليم.

---

١ – المصدر نفسه : ١٩٤

٢ – نص الحديث :« لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

٣ – تذكرة السامع والمتكلم في ادب العالم والمتعلم : ١٩٦

٣ – حسن التطلف في تفهيم طلابه ومراعاة استعداد أذهانهم

أن يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه، وحسن التلطف في تفهيمه ، لاسيما إذا كان أهلاً لذلك لحسن أدبه،وجودة طلبه، وحرضه على طلب الفوائد وحفظ النوادر الفرائد. ولايدخر عنه من أنواع العلوم مايسأله عنه وهو أهل له، لان ذلك ربما يوحش الصدر، وينفر القلب، ويورث الوحشة. وكذلك لايلقي إليه مالم يتأهل له، لان ذلك يبدد ذهنه، ويفرق فهمه ...

وأن يحرص على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده، وتقريب المعنى له من غير إكثار لايحتمله ذهنه ، أو بسط لايضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة ، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره.

ويبدأ بتصور المسائل ثم يوضحها بالأمثلة وذكر الدلائل، ويقتصر على تصوير المسألة وتمثيلها لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها ، ويذكر الأدلة والمأخذ لمحتملها، ويبين له معاني حكمها وعللها وما يتعلق بتلك المسألة من فرع وأصل. بعبارة حسنة الأداء، بعيدة عن تنقيب أحد من العلماء ....

واذا فرغ الشيخ من شرح درس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة يمتد بها فهمهم وضبطهم لما شرح لهم، فمن ظهر استحكام فهمه له بتكرار الإصابة في جوابه شكره، ومن لم يفهم تلطف في إعادته له، والمعنى بطرح المسائل ان الطالب ربما استحيا من قوله: لم أفهم.

وان يطالب الطلبة في بعض الأوقات بإعادة المحفوظات،ويختبرهم بمسائل تبنى على أصل قرره أو دليل ذكره، فمن رآه مصيباً في الجواب ولم يخف عليه شدة الاعجاب شكره ، وأثنى عليه بين أصحابه ، ليبعثه وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد. ومن رآه مقصراً حرضه على علو الهمة ونيل المنزلة في طلب العلم ...

واذا سلك الطالب في التحصيل فوق مايقتضيه حاله أو تحمله طاقته وخاف

الشيخ ضجره أوصاه بالرفق بنفسه، وذكره بقول النبي صلى الله عليه وسلم: « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، ونحو ذلك مما يحمله على الأناة والاقتصاد في الاجتهاد ..... والخ (١)

٤ — حسن المساواة للطلبة

أن لايظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في مودة ، أو اعتناء مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة، أو تحصيل أو ديانة، فإن ذلك ربما يوحش منه الصدر، وينفر القلب. فإن كان بعضهم أكثر تحصيلاً، وأشد اجتهاداً، أو أحسن أدباً، فأظهر إكرامه وتفضيله، وبين أن زيادة إكرامه لتلك الأسباب، فلابأس بذلك، لأنه ينشط ويبعث على الاتصاف بتلك الصفات.

وينبغي أن يتودد لحاضرهم، ويذكر غائبهم بخير وحسن ثناء...ويراقب أحوالهم في آدابهم وهديهم، وأخلاقهم .. وأن يسعى في مصالحهم، وجمع قلوبهم، ومساعدتهم بما تيسر عليه من جاه ومال عند قدرته على ذلك، وسلامة دينه، فإن الله تعالى في عون العبد مادام العبد في عون أخيه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله تعالى في حاجته، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه حسابه يوم القيامة. وإذا غاب بعض الطلبة غياباً زائداً عن العادة سأل عنه وعن أحواله، وعمن مايتعلق به، فإن لم يخبر عنه أرسل إليه، أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل.

واعلم أن الطالب الصالح أعود على العالم بخير الدنيا والأخرة من أعز الناس عليه ، وأقرب أهله إليه . ولذلك كان علماء السلف الناصحون لله ودينه يلقو ن شبك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم ومن بعدهم، ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه وعمله ، وهديه وإرشاد لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى، فإنه لايتصل شيء من علمه إلى أحد فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

---

١ — المصدر نفسه : ١٩٦، ١٩٧ ، ١٩٨، ١٩٩

وأنا أقول — هو المؤلف نفسه —إذا نظرت وجدت معاني الثلاثة موجود في معلم العلم. أما الصدقة فاقراؤه إياه العلم —وإفادته إياه، الاترى الى قوله «صلى الله عليه وسلم» في المصلي وحده : من يتصدق على هذا أي الصلاة معه لتحصل له فضيلة الجماعة، ومعلم العلم يحصل للطالب فضيلة العلم التي هي أفضل من صلاة في جماعة وينال بها شرف الدنيا والأخرة، واما العلم المنتفع به فظاهر، لأنه كان سبباً لإيصال ذلك العلم إلى كل من انتفع به. وأما الدعاء الصالح له فالمعتاد المستقر على ألسنة أهل العلم والحديث قاطبة من الدعاء لمشايخهم وأئمتهم، وبعض أهل العلم يدعون لكل من يذكر عنه شيء من العلم. (١)

أداب المتعلم في نفسه وفي دروسه

عرضنافيماسبق إلى جملة من الصفات التي ينبغي أن تتوفر في الأستاذ..ولسنا بمغالين إذا قلنا: إن المؤلف يهدف إلى غرض نبيل سام، وهو إيجاد شخصية تربوية علمية ذات نفس صافية، وطبعها بطابع الخير والبر، وتجنيدها في خدمة المجتمع. لأن المجتمع في كل زمان ومكان متعطش إلى من ارتضع من ثدي التربية القويمة لبناً خالصاً، واستولت الفضيلة على قلبه. وهذا حري بأن يشد أزره تحقيق أهدافه السامية، ومثله العليا، ويضفي على رسالته في الحياة إشراقاً يزيدها رفعة وسمواً، ويكلل مسعاها دائماً بالنجاح. ولست أريد أن أطيل القول في مكانة المعلم في بناء المجتمع وأثره الجليل فيه، فهو جدير بأن يكون موضوعاً لبحث قائم بنفسه. ولله قول شوقي في التنويه بشأن رجال التعليم:

قُم للمعلم وفِّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

وننتقل الآن إلى آداب المتعلم، ومامن ريب في أنه من اللبنات الأولى التي يتكون منها المجتمع. فاذا ماصيغت هذه اللبنات على الوجه الذي به تقوى

---

١ — المصدر نفسه: ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣

وتتماسك في خاصة نفسها، والذي به تتبوأ مكانها في بناء المجتمع ، أثمر ثمرته، وحقق غايته، ووجد المجتمع المثالي الفاضل الذي يسعى له المخلصون .
ولكي تتحقق هذه البغية ،لابد ان تهيمن على قلب المتعلم وروحه رغبته في العلم ،رغبة ينبع احترامها من قلبه ، فيكون للتعاليم التي يتلقاها اثرها الحميد في بناء شخصيته العلمية والادبية .

وقد وقف المؤلف فصلين كبيرين في هذا الباب . ونحن في البحث لا نستطيع أن نستوعب كل ما اورد من تعاليم ، ولذلك سنقتصر على ايراد نماذج منه، وهذه كافية في نظرنا لابراز معالمه نلفت فيه أنظار المتعلمين اليه.

أ – آدابه في نفسه (١)

١– المبادرة الى تحصيل العلم في شبابه

أن يبادر شبابه واوقات عمره الى التحصيل ، ولا يفتر بخدع التسويف والتأميل ، فان كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ، ولا عوض عنها . ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة ، والعوائق المانعة عن تمام الطلب، وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل، فأنها كقواطع الطريق. لان الفكرة اذا توزعت قصرت عن درك الحقائق ، وغموض الدقائق وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وكذلك يقال : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك .

٢ – تنظيم اوقاته للتعليم ، وللنوم والرياضة

أن يقسم أوقات ليله ونهاره ، ويغتنم ما بقي من عمره ، فأن بقية العمر لا قيمة له .

وأجود الأوقات للحفظ الأسحار وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل .

وقال الخطيب : أجود أوقات الحفظ الأسحار ثم وسط النهار ثم الغداة وأن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه ، ولا يزيد في نومه في اليوم

(١) المصدر نفسه : ٢٠٥

والليلة على ثماني ساعات وهو ثلث الزمان ، فان احتمل حالة أقل منها فعل . ولا بأس ان يربح نفسه وقلبه وذهنة وبصره إذا كلّ شيٌ من ذلك أو ضعف بتنزه وتفرج في المتنزهات بحيث يعود الى حالة ولا يضيع عليه زمانـه . ولا بأس بمعاناة المشيء ورياضة البدن فقد قيل : إنه ينعش الحرارة ، ويذيب فضول الأخلاط ،وينشط البدن . (١)

لتنظيم الاوقات فوائد جمة في إعطاء كل عمل حقه من الوقت والجهد والعناية وهدوء التفكير. يقول العقاد: (أصعب الأعمال سهل مع النظام) (٢) والعمل الكثير مستطاع إذ نيط كل عمل بوقته . لأ ن حكم الأعمال الكثيرة في هذه الحالة حكم العمل الواحد مادام له وقت لايشترك فيه عمل آخر .

٣ـ ترك المعاشرة ، واختيار الصديق في التحصيل :

أن يترك العشرة فان تركها من أهم ماينبغي لطالب العلم وخصوصاً لمن كثر لعبه ، وقلت فكرته ، فان الطباع سراقة ، وآفة العشرة ضياع العمر فائدة . والذي ينبغي لطالب العلم : أن لايخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه ، بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : «اغد عالماً أو متعلماً ولاتكن الثالث فتهلك »، فأن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه ولايفيده ولا يستفيد منه ولا يعينه على ماهو بصدده فليتلطف في قطع عشرته من أول الأمر قبل تمكنها ، فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها ، ومن الجاري على السنة الفقهاء : الدفع أسهل من الرفع . فان احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحباً صالحاً ديناً تقياً ورعاً ذكياً كثير الخير قليل الشر حسن المداراة ، قليل المماراة ، إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وان احتاج واساه ، وان ضجر صبره . ومما يروى عن علي رضي الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهـل وإيـاك وأيـاه
فكـم من جاهـل أردى حليمـاً حيـن آخـاه

(١) المصدر نفسه: ٢٠٦

(٢) انا – عباس محمود العقاد: ١٠٧

يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ما شاه

ولبعضهم :

إن اخاك الصدق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت شمل نفسه ليجمعك (١)

مما لاريب فيه أن صداقة الفضيلة عاطفة سامية القدر ،غزيرة الفائدة. وليست صداقة المنفعة بمعدودة في الخصال الحميدة ، وانما الذي يصح أن يعد خصلة حميدة سامية هي الصداقة التي يبعثها في نفسك مجرد اعتقادك ان صاحبك يتحلى بأخلاق فاضلة ، وهذه الصداقة ترسخ في القلب . وتؤتي ثمراً طيباً في كل حين . فينبغي للطالب أن يتخير لصداقتة الفضلاء من الناس فهؤلاء هم الذين تجد الصداقة فيهم قلوباً طيبة ، فتنبت نباتاً حسناً ، وتأتي بثمر لذيذ .

٤ — طاعة معلمه وحسن الإصغاء اليه

أن ينقاد لشيخه في أموره ، ولا يخرج عن رأيه وتدبيره ، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر فيشاوره فيما يقصده ، ويتحرى رضاه فيما يعتمده ، ويبالغ في حرمته ، ويتقرب الى الله تعالى بخدمته ، ويعلم أن ذله لمشيخه عز ، وخضوعه له فخر ، وتواضعه له رفعة . ويقال : ان الشافعي رضي الله عنه عوتب على تواضعه للعلماء — فقال :

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وقال الغزالي :لاينال العلم الا بالتواضع وألقاء السمع .

وأن يحسن خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان . ولا يقول له : لمَ ،ولا، لا نسلم ولا من نقل هذا؟ ولا أين وضعه وشبه ذلك. فإن أراد أستنادته تلطف في الوصول الى ذلك .

وأذا سمع الشيخ بذكر حكماً في مسألة او فائدة مستغربة ، او يحكي حكاية أو ينشد شعراً وهو يحفظ ذلك أصغى اليه إصغاء مستفيد له في الحال متعطش إليه ، فرح به كأنه لم يسمعه قط .

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في ادب العالم والتعلم / ٢١٢

قال عطاء : إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأريه من نفسي أني لا أحسن منه شيئاً ..والخ (١)

ب – آدابه في دروسه وقراءته (٢)

٥ – أن يبدأ بكتاب الله

أن يبدأ اولا بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظاً، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه فأنه أصل العلوم ، وأمها وأهمها ، ثم يحفظ من كل فن مختصراً يجمع فيه بين طرفيه من الحديث وعلومه والأصولين والنحو والتصريف ولا يشتغل بذلك كله عن دراسة القرآن ، وتعهده ، وملازمة ورده منه وليحذر من نسيانه بعد حفظه ... والخ (٣)

مما لاشك فيه أن القرآن الكريم منبع ثرٌّ من منابع التربية الصحيحة. له معالم خاصة به ، وله في النفس انطباعات روحية سامية . إنه يفيض بالتربية القويمة التي تهدف الى تكوين الشخصية تكويناً صالحاً يصل بها الى ذروة الشخصية السليمة ، وقمة المجد العلمي والتربوي، ويرتفع بها عن حمأة المادة المظلمة الى شرق الروحية المضيئة . ومن أجل هذا ينبغي للمعلم أن يوثق الصلة بين طلابه والقرآن الكريم .

٦ – الحذر من اختلاف العلماء

أن يحذر في ابتداء أمره من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء او بين الناس مطلقاً في العقليات والسمعيات ، فأنه يحير الذهن ، ويدهش العقل ، بل يتقن اولا كتاباً واحداً في فن واحد،او كتاباً في فنون ان كان يحتمل ذلك على طريقة واحدة يرتضيها له شيخه ، فإن كانت طريقة شيخه نقل المذاهب والاختلاف ، ولم يكن له رأي واحد ، قال الغزالي : فليحذر منه فان ضرره اكثر من النفع به،وكذلك يحذر في ابتداء طلبه من المطالعات في تفاريق المصنفات ، فإنه يضيع زمانه ، ويفرق ذهنه ، بل يعطي الكتاب الذي يقرؤه، أو الفن الذي يأخذه كليته حتى يتقنه ، وكذلك يحذر من التنقل

(١) المصدر نفسه: ٢١٤
(٢) المصدر نفسه: ٢٢٥
(٣) المصدر نفسه: ٢٢٥

من كتاب الى كتاب من غير موجب ،فانه علامة الضجر وعدم الفلاح. أما إذا تحققت أهليته ، وتأكدت معرفته ، فالأولى أن لايدع فناً من العلوم الشرعية الا نظر فيه ، فان ساعده القدر ، وطول العمر على التبحر فيه فذاك والا فقد استفاد منه ما يخرج به من عداوة الجهل بذلك العلم ، ويعتني من كل علم بالاهم فالاهم ، ولا يغفلن عن العمل الذي هو المقصود بالعلم .

وأن يصحح ما يقرؤه قبل حفظه تصحيحاً متقناً اما على الشيخ او على غيره مما يعينه ، ثم يحفظ بعد ذلك حفظاً محكما ، ثم يكرر عليه بعد حفظه تكراراً جيداً ، ثم يتعاهده في أوقات يقررها لتكرار مواضيعه .

وإذا شرح محفوظاته المختصرات،وضبط ما فيها من الاشكالات والفوائد المهمات ، انتقل الى بحث المبسوطات مع المطالعة الدائمة ، وتعليق ما يمر به أو يسمعه من الفوائد النفيسة ، والمسائل الدقيقة والفروع الغريبة ، وحل المشكلات والفرق بين احكام المتشابهات من جميع أنواع العلوم
ولا يستقل بفائدة يسمعها او يتهاون بقاعدة يضبطها بل يبادر الى تعليقها وحفظها .

ولتكن همته في طلب العلم عالية ، فلا يكتفي بقليل العلم مع امكان كثيرة ولا يقنع من ارث الأنبياء صلوات الله عليهم بيسيره،ولا يؤخر تحصيل فائدة تمكن منها ، أو يشغله الأمل والتسويف عنها ، فان للتأخير آفات ، ولانه اذا حصلها في الزمن الحاضر حصل في الزمن التالي غيرها .

وليحذر من نظر نفسه بعين الكمال، والاستغناء عن المشاريع ، فان ذلك عين الجهل وقلة المعرفة ، وما يفوته أكثر مما حصله .

وأن لايستحي من سؤال ما أشكل عليه،وتفهم ما لم يتعلقه بتلطف وحسن خطاب ، وأدب سؤال . قال عمر رضي الله عنه : من رق وجهه رق علمه . وقال مجاهد : لايتعلم العلم مستحي ولا مستكبر . ولبعض العرب :

وليس العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل
ولا يسأل عن شيء في غير موضعه (١).

قمينٌ بنا ان نقف وقفة يسيرة عند وصيته لطالب العلم بأن يتقن أولا كتاباً واحداً في فن واحد. لعل كان غرضه في هذا الرأي ان ينحى باللوم على ما رآه في معلمي زمانه من اعنات المتعلمين باستيعاب كتب عدة في العلم الواحد مع اختلاف الآراء، وتباين المصطلحات، لأن هذا مع المبتدئين اعجاز وإملال وإذا كان الاكتفاء بكتاب واحد في كل علم طريقة صحيحة مع المبتدئين كان تعدد المراجع مع الكبار خير عون لهم على الفهم والتعمق والموازنة والبصر بنواحي الموضوع. كما أن تفهيم موضوع واحد في علم بغير استعانة بغير علم آخر يتعذر، لأن كثيراً من الحقائق متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقاً بحيث لايمكن تدريس العلم منعزلا، فنحن مثلا لانستطيع دراسة الأدب مجرداً من القواعد والبلاغة، ثم ان المعارف كلما وشجت بينها وبين غيرها صلات قوية سهل حفظها، ورسخت في الذهن، وأسرعت الى الذاكرة عند الحاجة والخروج بالمتعلم من علم الى آخر يجدد نشاطه وقواه، ويفسح مداركه وآفاته، ويحبب الدرس اليه.

ولنقف وقفة ثانية عند هذه الوصية ولتكن همته في طلب العلم عالية. فيالها من وصية نفيسة. كبير الهمة في العلم يقتحم المصاعب في سبيل الطلب ويدافع مايعترضه من العوائق، وهو يعلم ان معالي الأمور وعرة المسالك محفوفة بالمكارة، والعلم أرفع مقام تطمح اليه الهمم، وأشرف غاية تتسابق اليه الأمم. فلا يخلص اليه الطالب دون ان يقاسي شدائد، ويحتمل متاعب ولا يستهين بالشدائد الا كبير الهمة. وهذه الهمة العالية هي التي صعدت بعلمائنا الذين خدموا العلم والمدنية والدين، فكانت لهم المكانة التي يصفها التاريخ بإجلال وإعجاب. واذا كان هذا مقام الهمة في العلم إذاً فمن حق الملقى اليهم بتربية النشيء من معلميهم، ان يصرفوا العناية الى تغذيتهم.

(١) المصدر نفسه، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٢

بالحديث عن أثر الهمة العالية ليقبلوا على العلم بهمم كبيرة، صيانة للوقت من أن ينفق في غير فائدة، وعزم يبلى الجديدان وهو صارم صقيل، وحرص لايشفى غليله إلا ان يغترف من موارد العلم بأكواب طافحة، وغوص في البحث لاتحول بينه وبين نفائس العلوم وعورة المسلك .

المراجع

١ أصول التربية وفن التدريس: أميل وسي قنديل. الطبعة الثالثة . مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٧هـ — ١٩٢٨ م.

٢ أنا: عباس محمود العقاد: الطبعة الأولى، مطابع مؤسسة دار الهلال.

٣ البيان والتبيين: الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م.

٤ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. ابن جماعة. (نشر ضمن رسائل أخرى في التربية الاسلامية. بعنوان: أداب المتعلمين) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية، بيروت ،١٣٨٦هـ ١٩٦٧م.

٥ منهج القرآن في بناء المجتمع ،محمود شلتوت. مطابع دار الكتاب العربي بمصر.